جذور إقصاء الآخر في العقل العربيفي ضوء الشعر الجاهلي والمرويات التاريخية

أ.د. كاظم حمد محراث / جامعة واسط / كلية التربية / قسم اللغة العربية

يقال: قَصِيَ فلان عن جوارنا بالكسر يَقْصي قَصًا، وأقْصَيْتُهُ أنا فهو مُقْصًى(١)، وحاطُونا القَصاءَ وقد رأَوْنا: أَي تباعَدوا عنا وهم حولنا، وما كنا بالبعد منهم، وقصِيَ عن جِوارِنا قَصاً إذا بعد. والإقصاء الإبعاد والنفي والطرد(٢)، وينسجم مع هذا المعنى الجث، وهو القطع(٣). وقيل: قطع الشيء من أصله وقيل: انتزاع الشجر من أصوله(٤). وشجرة مجتثة: ليس لها أصل في الأرض(٥)، وفُسِّر قولُه تعالى: ((اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار))(٦) بأنها الشجرة المنتزعة المقتلعة، المستأصلَة من فوق الأرض(٧).

أما الدلالة الاصطلاحية للفظ الإقصاء فلا يبعد عن المعنى اللغوي: فهو الخلع والنفي والطرد من القبيلة أو الوطن أو العمل، ومحاولة إقصاء الآخر بشتى الوسائل المتاحة إرضاءً للذات الفردية أو المجتمعية، ويخضع استئصال الآخر في كثير من الأحيان لكثير من أسباب الثأر.

وسلوك التباغض والعداء بين أسلافنا في الجاهلية كان نتاج ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية، ألمّت بالأعراب وأجبرتهم على ركوب هذا المركب الخشن؛ كارهين أو مختارين، فليس للأعرابي للمحافظة على حياته ولتأمين رزقه غير الغزو وقتل الآخر أو نفيه وطرده عمدا:

مستربلي البَغضاءِ بادٍ شنؤهم خُزرٍ عُيونُهُم عَلَيَّ غضابِ (٨)

لقد فرضت الطبيعة على العربي أن يكون محارباً غازياً، لأنها حرمته من خيرات هذه الدنيا ومن طيبات ما تنبت الأرض. حرمته من وجود حكومة تحميه من ظلم أخيه الآخر وتدافع عنه، وحرمته من وسائل الدفاع عن النفس ضد الطبيعة القاسية، فجعلته لا يملك شيئا يكنّ إليه في البوادي ليحمي نفسه من الرياح السموم ومن أشعة الشمس القاسية والحيوانات المتوحشة، وجعلته يقابل المرض بمفرده، إذ ليس في البادية طبيب حاذق دارس. فلم يكن أمامه والحالة هذه إلا أن يعلّم نفسه الصبر، وان يصير قاسيا لا يبالي بالنصر أو بالخسارة، بالحياة أو بالموت. إن خسر هذه المرة، حاول تعويض الخسارة بجولة جديدة وهكذا. لأنه إن يئس وجلس واستسلم للزمان، أكله جار له يطمع في ماله مهما كان، فهو لا بد له من استعداد لمنازلة جديدة:

تَأَخَّرتُ أَستَبقي الحَياةَ فَلَم أَجِد لِنَفسي حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّما(٩)

لذا عاش العرب قبل الإسلام حياة قائمة على التدافع، وأحاطت بهم أسباب الموت من كل جانب، وأمسى تمجيد القوة شعار الناس: فكانت البيئة واحدا من أهم أسباب توارث الخصومات والخلافات بين الأفراد، وتكاد سمة ذلك المجتمع تنطبق على سمة ما يقال في عالم السياسة اليوم بعدم وجود صديق دائم ولا عدو دائم . فهم إن تصالحوا تحالفوا ضد عدو وسالت دماء بعضهم دفاعا عن حليفهم، وإذا اختلفوا تقاتلوا ووقعت بينهم الأيام وطمع كل فرد منهم استئصال خصمه، وهكذا دارت دائرة الحروب بينهم غذتها خرافات وأوهام وحكايات متوارثة لا تبيح لهم بالتسامح، وكانت خرافة الهامة والصدى معتنقة بينهم بشدة :

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أهجوك حتى تقول الهامة اسقوني(١٠)

في دراسة شديدة التركيز، يتمكن الدارسُ الاتكاءَ على كمٍّ كبير من النصوص الشعرية المعتبرة، مدعومة بروايات تاريخية موثوق بها، وأن يلمّ بشتى الممارسات التي من شأنها اجتثاث الآخر واستئصاله وهي ممارسات كانت مركوزة في عقلية أجدادنا العرب قبل الإسلام، وما زلنا نحن عرب اليوم نتخذ تلك الممارسات سبيلا للتعايش بعضنا مع بعضنا الآخر. فما زلنا نستأصل الآخر قتلا غيلة وغدرا طلبا للثأر، أو نفياً تهجيرا أو تشريدا أو طردا،أو استهانة واستهزاء.....

الإقصاء قتلاً:

أغنتنا مصادر التاريخ بأخبار مواقف يأبى فيها أجدادنا الركون إلى التفاهم أو التسامح أو أي سبيل للتعايش سوى سبيل الانتقام والثأر، ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه، فقال: إنك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ، ولا تبصير من مجرب ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزاراً واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع الذي كان لحجر، ولو كان يفدي هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً، وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقدناه إليك بنسعةٍ تذهب شفرات حسامك بباقي قصرته، فنقول: رجل امتحن بها لك عزيز فلم يستل سخيمته إلا بمكنته من الانتقام، أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردها تسليط الإحن على البرآء،وإما أن وادعتنا

إلى أن تضع الحوال، فتسدل الأزر، وتعقد الخمر فوق الرايات، قال: فبكى ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أنه لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به جملاً ولا ناقة فأكتسب به سبة الأبد، وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سبباً، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنقاً،وفوق الأسنة علقاً:

إذا جالت الحرب في مأزقٍ تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروه وأذية وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل:

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت كتائبنا في مأزق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه فرويداً ينفرج لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير، ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى، إذ كنت نازلاً بربعي، ولكنك قلت فأوجبت فقال قبيصة ما نتوقع فوق المعاتبة والإعتاب، فقال امرؤ القيس هو ذاك(١١).

وإننا لو أمعنا النظر في الحوار الجاري بين الرجلين لوجدنا أن قبيصة كان في موقف الاعتذار وقدم لامرئ القيس كل ما يمكن حقن الدماء لكن امرأ القيس رفض التسامح بدعوى ان المقتول ليس له كفء بين الناس (لقد علمت العرب أنه لا كفء لحجر في دم) فهو لا يساوم على دم أبيه بفدية أو بفداء أو عفو أو صفح أو صلح، فكل الناس عنده لا يساوون أباه!! لكن امرأ القيس وهو يختار استئصال بني أسد يعتمد في ذلك على أعوانه و حلفائه، وكأننا أمام قبيلتين (بمفاهيم اليوم حزبين إذا شئت) كل واحدة منهما تطلب تدمير الأخرى قتلا وسبيا وتشريدا، وبذا فالأمر لم يكن شخصيا، بل تعداه إلى العقل المجتمعي. بمعنى: أن الثأر من الآخر والجد في تدميره واستئصال جذوره لم يكن همّاً فرديا يمارسه الناس منفردين تجاه خصوم فرديين، بل تعداه ليكون هما تمارسه الجماعة تجاه جماعة أخرى.

ولم تتوقف موجة استئصال الآخر وقتله على الكبار حسب،بل نالت الأطفال أيضا، إذ ورد إلينا نص من شعر المهلهل يفخر فيه أنه أمعن في البكريين، وذبّح الأطفال منهم :

قد ذبحنا الأطفال من آل بكر وقهرنا كماتهم بالنضال

وكررنا عليهم وانثنينا بسيوف تقد في الأوصال(١٢)

ثم أن المهلهل في هذا الموقف لا يتوقف عند اقتلاع خصومه من الرجال الكبار، ولا عند ذبح الأطفال، بل يذهب لأبعد من ذلك، فيروم إسقاط الأجنة من بطون الأمهات، حتى كأنه يريد ألاّ يبقي لخصومه وجود على الأرض:

حَتّى تَظَلَّ الحامِلاتُ مَخافَةً مِن وَقعِنا يَقذفنَ كُلَّ جَنينِ(١٣)

ومن هذا الموقف يمكننا تفهّم عمق الحقد والكراهية للآخر(وهو هنا ابن العم فما بالك إذا كان الخصم غريبا)، والرغبة في محو نسله من الأرض. ولم تكن هذه العدوانية متمكنة في عقلية سادة العرب وحدهم، بل كان يمارسها عبيدهم ضد الأسياد، ليس بدافع الانتقام من أسياد ظلموهم حسب، بل هو كذلك (عند الصعاليك مثلا) فضلا عن أن أولئك العبيد مارسوا هذا العنف ضد خصوم أسيادهم: انظر لقول عنترة:

إنّي أَنا عَنتَرَةَ الهَجينُ فَجُّ الأَتانِ قَد عَلا الأَنينُ

يُحصَدُ فيهِ الكَفُّ وَالوَتينُ مِن وَقعِ سَيفي سَقَطَ الجَنينُ(١٤)

ومما لاشك فيه أن الأحقاد المتبادلة بين أجدادنا الموغلين في القدم؛ جماعات وأفراد، كان يغذي الأجيال جيلا بعد جيل:

قتلنا خزاعة في دارها وبكرا قتلنا وجيلا فجيلا(١٥)

وَرَكوبٍ تَعزِفُ الجِنُّ بِهِ قَبلَ هَذا الجيلِ مِن عَهدٍ أَبَد(١٦)

لكننا لو توخينا الإنصاف ونحن نراجع مكونات عقلية أسلافنا فعلينا أن ندرك أن مجمل الظروف المحيطة بحياتهم وبتاريخ كل فرد منهم وبكل جماعة منهم (قبيلة) فرضت عليهم هذا السلوك، وأجبرتهم على إزاحة الآخر بأي وسيلة مشروعة في أعرافهم أو ليست مشروعة في أعرافنا اليوم؛ فالمسألة مسألة وجود وبقاء، ليحلوا محل بعضهم الآخر في مرعى أو على مورد ماء أو في زعامة قبيلة،....،

أن خطة هذه الدراسة لا تأتي على الأسباب الفكرية والنفسية والاجتماعية والبيئية التي غرست هذه الممارسات في عقل العربي، ذلك لأن الخوض في تلك الأسباب ومسبباتها يحتاج إلى جهد آخر، نرشحه لدراسة أكاديمية متخصصة ما أمكن.

والظاهر أن الأمر لم يك مقتصرا على العرب من أهل البادية، إذ شملت ممارسات العنف والتقتيل أهل القرى أيضا. فحين استنجد قصي بن كلاب بأخيه لأمه رزاح الساكن خارج مكة، جاء الأخير يساعد أخاه في استبعاد بعض أهل مكة الأصليين قتلا:

فلما انتهينا الى مكة أبحنا الرجال قبيلا قبيلا

نعاورهم ثم حد السيوف وفي كل أوب خلسنا العقولا

نخبزهم بصلاب النسو رِ خبز القوي العزيز الذليلا

قتلنا خزاعة في دارها وبكرا قتلنا وجيلا فجيلا(١٧)

ولما وقعت الحرب بين جديلة والغوث الطائيين كان أبو الطمحان القيني مجاوراً في جديلة من طيء، وكانت قد اقتتلت بينها وتحاربت الحرب التي يقال لها "حرب الفساد" وتحزبت حزبين: حزب جديلة وحزب الغوث، وكانت هذه الحرب بينهم أربعة أيام، ثلاثة منها للغوث ويومٌ لجديلة. فأما اليوم الذي كان لجديلة فهو "يوم ناصفة". وأما الثلاثة الأيام التي كانت للغوث فإنها "يوم قارات حوق" ويوم البيضة "ويوم عرنان" وهو آخرها وأشدها وكان للغوث، فانهزمت جديلة هزيمة "قبيحة"، وكانت الغوث قاسية جدا مع أختها جديلة، إذ قتلوا قائدهم، فأخذ رجل أذنيه وخصف بها نعليه، وشربوا بجماجم القتلى من جديلة، فقال شاعرهم:

ونخصف بالآذان منكم نعالنا ونشرب كرها منكم بالجماجم(١٨)

فأي فعل قاسٍ يمكن أن يكون أشد عنفاً، وأكثر قسوة، من قيام الإنسان بتقطيع أعضاء القتلى والتمثيل بها على صورة الوصف الواضح في هذا البيت ؟؟

الإقصاء نفياً وطرداً وتشريداً

نقول: نفيت الرّجلّ وغَيرَه نَفْياً إذا طردتَه، فهو منفيّ، قال الله تعالى: "أو يُنْفَوْا من الأرض". والانتفاء من الولد: أن يتبرّأ منه(١٩). وكان إزاحة الجماعات القبلية وطردها خارج مكانها بالقوة عملا مألوفا وشائعا عند

العرب، فرزاح النهدي ساند أخاه قصيا بن كلاب على نفي سكان مكة من مواقعهم، وحلوا محلهم(٢٠)، فقال قائلهم:

نفينا عن منازلها عليا فما منها بذي الأطواء بيتُ(٢١)

وقال:

نفينا هم من بلاد المليك كما لا يحلون أرضا سهولا

فأصبح سبيهم في الحديد ومن كل حي شفينا الغليلا(٢٢)

وكان نفي الأفراد من القبيلة وطردهم من الأسرة ممارسة منتشرة، قد يأتي نتيجة جريرة يرتكبها الفرد، تضر بالقبيلة أو بالأسرة أو بسواهما.

وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع، وكان له عاشقا، فطلبها زماناً فلم يصل إليها، وكان يطلب منها غرةً، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل، فلما بلغ ذلك حجراً أباه دعا مولًى له يقال له ربيعة، فقال له: اقتل امرأ القيس وأتني بعينيه، فذبح جؤذراً فأتاه بعينيه، فندم حجر على ذلك، فقال: أبيت اللعن! إني لم أقتله، قال:فأتني به، فانطلق به حياً(٢٣).

وتجد للنفي صورا متعددة في ممارسات الجاهليين بعضهم ضد البعض الآخر، فقد يرد من المجاز أن يقال: فلان من نفايات القوم ونِفاهم. قال الشاعر:

عشيرتك الأدنون خير عشيرة وأنت دنيّ من نفيَ القوم راضع(٢٤)

بمعنى أنك من أراذلهم، وأنت لا تقع في المنزلة السوية منهم، فمكانتك النفي من شمائل قومك الكريمة. وقد ترد على الصورة التي رسمها أوس بن حجر:

أَبَني لُبَينى إنَّ أُمَّكُمُ دَحَقَت فَخَرَّقَ ثَفرَها الزَندُ

تُنفَونَ عَن طُرُقِ الكِرامِ كَما تَنفي المَطارِقُ ما يَلي القَرَدُ (٢٥)

يطمح أوس لأن يكون نفي خصمه قلعا من الجذور، لا تنبت بعدها، بمعنى أن النفي الذي يتمناه لخصمه، والمستقر في عقليته تتجاوز الإقصاء إلى السحق الإبادة. حاول أن تلتقط معي هاتين الصورتين،الأولى:انه يشبه خصمه بالصوف والوبر المتساقط تلقائيا من جسم نعجة أو ناقة،(والصوف والوبر المتساقط في هذه الحالة عادة ما يكون ضعيفا أو متساقطا من جلد شاة هزيلة أو عليلة)،والثانية:تتمثل في جمع هذا الصوف أو الوبر وتعريضه للطرق والضرب والجلد بقصد كسب نعومته(بالنسبة للصوف)وبقصد سحقه وإذلاله وترويضه وأهانته (بالنسبة للخصم).

أما الطَّرِيدُ فهو المَطْرُودُ من الناس، والطَّرْدُ: الإِبْعَادُ، والرجل مَطْرُودٌ وطَرِيدٌ :

فأُقْسِمُ لولا أَنَّ حُدْباً تَتَابَعَتْ عليَّ، ولم أَبْرَحْ بِدَيْنٍ مُطَرَّدا(٢٦)

ومن المؤكد أن من يتعرض للإقصاء بالطرد أو بسواه من من ممارسات التهميش يشعر بكثير من المرارة والأسى، وبخاصة إذا كان إقصاؤه متأتيا من علة في حياته لم يكن هو سببها، كالذي وقع مع عنترة بن شداد:

إذا فاضَ دَمعي وَاِستَهَلَّ عَلى خَدّي وَجاذَبَني شَوقي إِلى العَلَمِ السَعدي

أُذَكِّرُ قَومي ظُلمَهُم لي وَبَغيَهُم وَقِلَّةَ إِنصافي عَلى القُربِ وَالبُعدِ

بَنَيتُ لَهُم بِالسَيفِ مَجداً مُشَيَّداً فَلَمّا تَناهى مَجدُهُم هَدَموا مَجدي

يَعيبونَ لَوني بِالسَوادِ وَإِنَّما فِعالُهُمُ بِالخُبثِ أَسوَدُ مِن جِلدي

فَوا ذُلَّ جيراني إِذا غِبتُ عَنهُمُ وَطالَ المَدى ماذا يُلاقونَ مِن بَعدي

أَتَحسِبُ قَيسٌ أَنَّني بَعدَ طَردِهِم أَخافُ الأَعادي أَو أَذِلُّ مِنَ الطَردِ(٢٧)

واحتفظت ذاكرة الجاهليين بكثير من ممارسات الطرد والنفي التي وقعت بين قبائل العرب، وظلت أخبارها ماثلة فيما يتناقله الناس جيلا بعد جيل، ووقف الشعراء الجاهليون يتمثلون ببعض تلك الأخبار:

ولا تُلاقي كَما لَاقَت بَنو أَسَدٍ فَقَد أَصابَتهُمُ مِنها بِشُؤبوبِ

وَلَم يَبقَ غَيرُ طَريدٍ غَيرِ مُنفَلِتٍ وَموثَقٍ في حِبالِ القِدِّ مَسلوبِ(٢٨)

والتَشْريد: الطَرْدُ أيضا، ومنه قوله تعالى: "فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ"، أي فَرِّقْ وبَدِّدْ جمعَهم. والشَريد: الطَريد. وقول الله عز وجل: "شرِّد بهم من خلفهم"، أي: نكِّل بهم، قال:

أُطَوِّفُ بالأَباطِحِ كُلَّ يَوْم مَخافةَ أَنْ يُشَرِّدَ بِي حَكِيمُ(٢٩)

ووجدنا في الشعر الجاهلي شكلا آخر من أشكال التشريد، بل سببا آخر من أسبابه، فقد يشهِّر فرد بعيوب آخر تقربا من سلطان، أو تملقا له، مما يدفعه للتشريد. ومما يروى بهذا الشأن أن لبيد بن ربيعة الشاعر وجد الربيع بن زياد العبسي سيد عبس في مجلس النعمان بن المنذر يؤاكله، فذمّه واتهمه بمرض في عورته، وسَمَّع بعيوبه فنفر النعمان منه، وحاول الربيع إصلاح الموقف، لكن النعمان لم يتعاطَ مع محاولات الربيع، بل زاد الأمر تسميعا وتشريدا وتأييدا، إذ قال:

شرّد برحلك عنّي حيث شئت ولا تكثر عليّ ودع عنك الأقاويلا

فقد رميت بداءٍ لست غاسله ما جاور السّيل أهل الشّام والنّيلا

قد قيل ذلك إن حقا وان كذبا فما اعتذارك من شيء إذا قيلا(٣٠)

ولا سبيل لتكرار قصة طرفة بن العبد مع أبناء عمومته، وهم الذين شردوه من صفوفهم، واغتصبوا إرث والده في المال والجاه والزعامة، وعلى الرغم من ذلك الذي جرى له معهم كله، فإنهم ظلوا يرفضون التصالح معه، وبقي يعاني من ظلم واغتراب داخل مجتمعه،هي حياة اغتراب تشبه حياة من يعيش مخلوعا ومنبوذا، أو قل: هو الظلم والطرد والخلع والتشريد كله، وهو القائل:

إلى أَن تَحامَتني العَشيرَةُ كُلُّها وَأُفرِدتُ إِفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

فَما لي أراني وابنَ عَمّيَ مالِكاً، متى أَدْنُ منهُ يَنْأَ عَني ويَبْعُدِ؟

يَلُومُ وما أدري عَلامَ يَلُومُني، كما لامَني في الحَيِّ قُرْطُ بنُ معبَدِ

وَأَيأَسَني مِنْ كلِّ خَيرٍ طَلَبتُهُ، كأَنّا وَضَعناهُ إلى رَمْسِ مُلْحَدِ

على غَيرِ ذَنْبٍ قُلتُهُ غَيرَ أَنَّني نَشَدْتُ فلَم أُغفِلْ حَمُولَةَ مَعبَدِ

وَظُلْمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنّدِ(٣١)

الإقصاء بالاستهانة والاستهزاء

وما كان إقصاء الآخر بأسلوب الاستهانة أو الاستهزاء ببعيد عن عقلية العرب، ولم يأت في سلوكهم عفو الخاطر، بل كانوا يقصدونه قصدا، ويسيرون إليه عمدا في القول وفي الفعل. وكان هدف ذلك كله إقصاء الآخر، وتدمير سمعته وجاهه ووجاهته، وضربه في موضع الوجع الحقيقي:

قَطَعتُ بِهِ مِنكَ الحَوامِلَ فَانبَرَت فَما بِكَ مِن بَعدِ الهِجاءِ نُهوضُ(٣٢)

وهُمْ ضَرَبُوكَ ذَاتَ الرَّأسِ حتَّى بَدَتْ أُم الدِّماغِ من العِظامِ(٣٣)

وفي طرف من هذا يأتي التقليل من شأن الآخر، وبث صور الاستهزاء بمكانته، حتى يحلو لبعضهم زحزحة خصومه من فصيلة الرجال الى جنس النساء:

وَما أَدري وَسَوفَ إِخالُ أَدري أَقَومٌ آلُ حِصنٍ أَم نِساءُ(٣٤)

وبمثل هذا المضمون، تسابقن الشواعر الجاهليات وتزاحمن على تعيير رجال قبائلهن إذا تباطأوا في أخذ الثأر، وتعالت أصوات لا تحصى في جزيرة العرب تطالب بسحق الآخر، وتدميره، فإن لم يفعل رجال القبيلة ذلك، أقصتهم نساؤهم من رجولتهم وأمسوا نساءً:

وَإن أنتمُ لَم تغضبوا بعدَ هذهِ فَكونوا نساءً لا تعبّ من الكحلِ

وَدونكمُ طيب العروسِ فإنّما خُلقتم لأثوابِ العروس وللنسلِ

فَبُعداً وسُحقاً للّذي ليس دافعاً وَيَخال يَمشي بيننا مشية الفحلِ(٣٥)

الإقصاء تهميشاً وتشويهاً

وقد يأتي الإقصاء في شكل من أشكال التشويه. والتشويه: يعني التقبيح، ومنه المشوّه. والشَّوَه من قولهم: رجل أشْوَهُ: قبيح، وامرأة شوهاء: قبيحة، والجمع شُوه(٣٦).

وتتعدد صور تشويه الآخر في الشعر الجاهلي، وتكاد مهمة غرض الهجاء في ذلك العصر تكون قائمة على هذا المضمون، وتتحقق لقصيدة الهجاء قوتها وفاعليتها وانتشارها كلما كانت شديدة في إظهار عيوب الآخر وتشويه منزلته. وكان الجاهليون ،أفرادا وقبائل، يخشون الهجاء أيما خشية، وكثيرا ما أبكى الهجاء زعماء القوم وساداتهم.

يروى أن الأعشى أتى علقمة بن علاثة فقال له: أجرني، فقال: قد أجرتك. قال: من الجن والإنس؟ قال نعم. قال: ومن الموت؟ قال لا. فأتى عامر بن الطفيل فقال: أجرني، قد أجرتك. قال: من الجن والإنس؟ قال نعم. قال: ومن الموت؟ قال نعم. قال: وكيف تجيرني من الموت؟ قال: إن مت وأنت في جواري بعثت إلى أهلك الدية. فقال: الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت. فمدح عامراً وهجا علقمة بقوله:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ويروى أن علقمة لما سمع هذا البيت، بكى وقال: اللهم أجزه وأخزه إن كان كاذبا(٣٧)

وصور تسقيط الآخر وتهميشه متعددة وأساليب تمريرها متنوعة، فتارة يميل أجدادنا إلى إقصاء الآخر عن طريق التشهير بالأعراض:

أَنتُم بَنو المرأةِ التي زَعَمَ النـ ـناسُ عليها في الغَيِّ ما زَعَمُوا (٣٨)

وتارة بشتمه، وإلصاق صفة اللؤم به وبآبائه، وبأبنائه:

اللَؤمُ أَكرَمُ مِن وَبرٍ وَوالِدُهُ وَاللُؤمُ أَكرَمُ مِن وَبرٍ وَما وَلَدا

قَومٌ ما جَنى جانيهُمُ أَمِنوا مِن لُؤمِ أَحسابِهِم أَن يُقتَلوا قَودا(٣٩)

ويضيق المقام هنا في عرض أساليب تسقيط الآخر وتهميشه،والتشهير به بقصد الإقصاء، ذلك لأنها من الوفرة والكثرة بسعة تكاد تشمل معظم الموروث الشعري الجاهلي، فحين يهجو فانه يشتم، وحين يفخر، فإنه يتعالى ويرفع مقام نفسه فوق مقام الآخرين:

نَحنُ الفَوارِس نَغشى الناسَ كُلَّهُم وَنَقتُلُ الناسَ حَتّى يوحِشَ البَلَدُ(٤٠)

فالحارث بن عباد على استعداد تام لمحو الجنس البشري كله من فوق سطح الأرض كي يبقى هو وقبيلته أحياءً عليها. فيما يهمّش جاهلي آخر الناس طراً، ويرفع مقام نفسه وقومه إلى أعلى عليين ، ويضع الناس كلهم في أسفل سافلين:

بَنى لَنا أَوَّلونا فَوقَ عالِيَةٍ مَجداً دَعائِمُهُ مِن تَحتِهِ زُلُقُ

حَتّى اِستَوَينا عَلى أَشرافِ رابِيَةٍ عِندَ الثُرَيّا بِها الأَرواحُ تَختَنِقُ

لا يَفتَح الناسُ باباً حينَ نَغلِقُهُ وَلا يَكونُ لِبابٍ دونَنا غَلَقُ

الناسُ أَرضٌ ونحن السقف فَوقَهُمُ نَحنُ السَماءُ وَهُم مِن تَحتِنا خُلِقوا(٤١)

(جعال بن عبد النهمي/ الاكليل/ الهمداني

ولما يتغزل فكثيرا ما يعرض نفسه أمام الحبيبة بأنه الأفضل والأجدر، وفي موقف المديح كثيرا ما يميل إلى التعريض بخصوم الممدوح فيرفع شأن ممدوحه ، ويقلل من شأن آخرين، انظر لقول النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب(٤٢)

وفي غرض الرثاء، يكون ميّتُه أفضل الأموات، وقاتلوه جبناء، أو بخلاء، أو غادرين..... وقل مثل هذه الأقوال في كمٍّ غير قليل من مضامين القصيدة الجاهلية، وأغراضها.

الإقصاء تعالياً على الآخر وتمايزاً وتباهياً

تتجه مضامين قصيدة الفخر لإظهار التفوق على الآخر، وإظهار الانفراد بالتميز عليه، وذلك كله يأتي في ثوب التباهي والغرور:

وَقَد زُرنا الضُحاةَ بَني لُهَيمٍ فَأَحدَرناهُمُ في كُلِّ عارِ

فَقُل لِابنِ الذُعَيرِ النَذلِ هَلّا تَصَبَّرُ في الوَغى مِثلَ اِصطِباري(٤٣)

البراق، في هذا الموقف، أقصى خصومه (الجماعة: بني لهيم) وأبعدهم من كل خصيصة تمت للتباهي والتفاخر بصلة (فأحدرناهم: أنزلناهم الى المنحدر)، ومال بخطابه من الجماعة إلى الفرد (ابن الذعير) ليظهر التفوق الجماعي في البيت الأول، ويظهر التفوق الفردي في البيت الثاني. وفي موقف مماثل، يقف شاعر

فارس آخر يفاخر الناس كلهم ويتباهى عليهم دونما استثناء، ليقول لهم: نحن نشرفكم، بل أن ملابسنا تشرف القوم لأنها لامست أجسادنا، ومن لا يصدّق منكم فليذارعنا المجد وليدخل معنا في جولة من جولات التحدي، ولينظر أين سنكون نحن، وأين سيكون هو!!

يُشَرِّفُ أَقواماً سِوانا ثِيابُنا وَتَبقى لَهُم أَن يَلبَسوها سَمايِعُ

إِذا نَحنُ ذارَعنا إِلى المَجدِ وَالعُلى قَبيلاً فَما يَسطيعُنا مَن يُذارِعُ(٤٤)

وكان نقص الماء في بيئة الجزيرة، واحدا من مبررات شجعت على إقصاء الآخر وطرده كلما سمحت القوة بذلك، وكان سببا مهما في دفع العربي الاستحواذ على موارده، وإقصاء الآخرين عنه، وكان هذا النقص واحدا من أهم أسباب التدافع بين الناس أفرادا، وجماعات. وغالبا ما يطمع بالوصول قبل غيره إلى المورد كي يشرب أولا، ويترك الفضلة منه للآخر القادم بعده. وكان وقع هذا النشاط الرعوي قويا في التفاخر بالوصول إلى الماء أولا، والتباهي بإقصاء الآخر عنه، واقرأ هاهنا أقوال شعرائهم:

وَإِنّا الشارِبونَ الماءَ صَفواً وَيَشرَبُ غَيرُنا كَدِراً وَطينا(٤٥)

وعمرو بن كلثوم لا يكتفي بالشربة الأولى حسب، ولا يكتفي بنفي الآخرين عن أي مورد من موارد الماء، بل أخذه الطيش والغرور للاستحواذ على الدنيا وما فيها، يابسة وماءً، بشرا ودوابا، فهو سعيد لأنه لم يتعرض للظلم، لأنه القادر الأوحد على ظلم الآخرين دون أن يظلمه أحد:

وَنَشرَبُ إِن وَرَدنا الماءَ صَفواً وَيَشرَبُ غَيرُنا كَدَراً وطينا

لنا الدُنيا وَمَن أَضحى عَلَيها وَنَبطِشُ حينَ نَبطِشُ قادِرينا

نُسَمّى ظالِمينَ وَما ظُلِمنا وَلكِنا سَنَبدَأُ ظالِمينا (٤٦)

الهوامش والتعليقات

١. الصحاح (باب ق ص ا).

٢. و٣.و٤. لسان العرب (باب ق ص ي).

٥. العين (باب ج ث ث).

٦.سورة ابراهيم /٢٦.

٧. تاج العروس (باب ج ث ث).

٨. الشعر والشعراء، البيت لعباد بن عمرو بن كلثوم.

٩. الأغاني، ج١٢ص٣١١.

١٠. صبح الأعشى في صناعة الانشا،ج١ص٤٦١ والبيت للإصبع العدواني.

١١.الأغاني ج٩ ص١٢٤).وصبح الأعشى ج٢ص,٢٢٩

١٢. ديوان مهلهل بن ربيعة،ص٨٥.

١٣. م.ن. ص٨٥.

١٤.ديوان عنترة، ص,٧٣

١٥.الأغاني ج٥ص٦١. والبيت لرزاح النهدي.

١٦. ديوان طرفة بن العبد، ص,٤٢

١٧. الأغاني ج٥ص٦١. والبيت لرزاح النهدي.

١٨. الأغاني ج١٣ص,١٤

١٩. العين (باب ن ف ي).

٢٠ .و٢١.و٢٢. ينظر لذلك الأغاني، ج٥ص٥٥ وما بعدها.

٢٣. وردت القصة في الشعر والشعراء،ص٥٣.

٢٤. أساس البلاغة (باب ن ف ي).

٢٥. ديوان أوس بن حجر،ص٢١ ـ ٢٢. دحقت: خرج رحمها بعد الولادة. الثفر: حياء المرأة. التزنيد: أن تُخَلّ أشاعر الناقة بأخلة صغار ثم تُشَد بشعر وذلك إذا اندحقت رحمها بعد الولادة. القَرَدُ: ما تَسَاقَطَ وتَمَعَّطَ عن الإبل والغَنَم من وَبَرٍ وصُوفٍ، وقيل: القَرَدُ نفَايَة صوْفِ الضّأنِ خاصَّةً، والطَّرْق: نَتْفُ الصوْفِ بالمِطْرَقَة وهي الخَشَبَةُ التي يُضْرَبُ بها.

٢٦. لسان العرب (باب ط رد).

٢٧. ديوان عنترة،ص,١٢٩

٢٨. ديوان النابغة الذبياني، ص,٥٣

٢٩. الصحاح (باب ش رد) ولسان العرب (باب ش ر د). وحَكِيمٌ: رجل من بني سُلَيْم كانت قريش ولته الأَخذ على أيدي السفهاء.

٣٠. الأغاني ج١٧ ص١٩١.

٣١. ديوان طرفة، ص٣١ ـ ,٣٦

٣٢. ديوان عبيد بن الأبرص، ص٩٠.

٣٣. المفضليات،ص٣٨٨. والبيت لأوس بن غلفاء الهجيمي.

٣٤. شعر زهير بن أبي سلمى،ص١٣٦.

٣٥. الأغاني ج١١ص١٧٠ . والبيت لعفيرة بنت عباد الجديسية.

٣٦. صحاح اللغة (باب ش و هـ).

٣٧. الأغاني ج٩ص,١٤٢

٣٨. المفضليات،ص٤٢. والبيت للجميح الأسدي.

٣٩. كتاب الصناعتين، ص٩٧.

٤٠. ديوان الحارث بن حلزة .ص٩٩. البيت للحارث بن عباد.

٤١. الاكليل ،ج١٠ص١٦١. والنص لجعال بن عبد النهمي.

٤٢. ديوان النابغة الذبياني، ص,٥٦

٤٣. البرّاق بن روحان بن أسد بن بكر بن مرة، من بني ربيعة. شاعر جاهلي من أهل اليمن ومن شعراء الطبقة الثانية وشهرته وإقامته في البحرين، ويعد من شجعان الجاهليين، ومن ذوي السيادة فيهم وكانت بينه وبين طيء وقضاعة حروب انتهت بظفره وظهور قومه، وهو من أقارب المهلهل وكُليب.

٤٤. منتهى الطلب من أشعار العرب ،ج٨ص٢٧٩والبيت لعبيد بن عبد العزى.السمايع: ما يُسْمَع من صيت أو ذكر حسن.

٤٥. شرح ديوان أمية بن الصلت،ص٨٦.

٤٦. ديوان عمرو بن كلثوم،ص٧٠.

المصادر

القران الكريم

١. أساس البلاغة، الزمخشري(ت٥٣٨هـ) تحقيق محمد باسا عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٢. الأغاني أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت(د.ت).

٤. تاج العروس،الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)تحقيق علي شيري، دار الفكر ، بيروت، ١٩٩٤م.

٥.ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، ١٩٧٩م.

٦. ديوان الحارث بن حلزة، إعداد طلال حرب، الدار العالمية، بيروت،١٩٩٣م.ص,٩٩

٧. ديوان طرفة بن العبد،تقديم كرم البستاني، دار صادر، بيروت،٢٠٠٦م.

٨. ديوان عبيد بن الأبرص، ص٩٠. عبيد بن الأبرص،دار صادر، بيروت،١٩٨٨م.

9.ديوان عمرو بن كلثوم،دار صادر، بيروت،٢٠٠٤م.

١٠. ديوان عنترة،دار صادر، بيروت (د.ت).

١١. ديوان مهلهل بن ربيعة،إعداد طلال حرب، دار صادر، بيروت،١٩٩٦م.

١٢. ديوان النابغة الذبياني،محمد الطاهر بن عاشور،الشركة التونسية للتوزيع،تونس،١٩٨٦م.

١٣. شرح ديوان أمية بن الصلت،سيف الدين الكاتب،دار الحياة، بيروت(د.ت)

١٤. شعر زهير بن أبي سلمى،صنعة الأعلم الشنتمري(ت هـ)،تحقيق فخر الدين قباوة،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

١٥. الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)دار إحياء العلوم ، بيروت،١٩٨٧م.

١٦. صبح الأعشى في صناعة الانشا،القلقشندي(ت هـ)تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق،١٩٨٧م.

١٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري (ت هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، القاهرة، ١٩٨٧م.

١٨. كتاب الاكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير،الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق محمد بن علي بن حسين الأكوغ الحوالي، مكتبة الارشاد، صنعاء،٢٠٠٨م.

١٩. كتاب العين، الفراهيدي (ت١٧٥هـ) تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م.

٢٠. كتاب الصناعتين،تصنيف أبي هلال العسكري(ت هـ)تحقيق علي محمد البجاوي وزميله،المكتبة العصرية،بيروت، ٢٠٠٦م.

٢١. لسان العرب، ابن منظور(ت) ضبطه خالد رشيد القاضي، دار صبح،بيروت، ٢٠٠٦م.

٢٢. المفضليات،المفضل الضبي (ت١٧٨هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هرون،دار المعارف، مصر، ١٩٤٢م.

٢٣. منتهى الطلب من أشعار العرب،محمد بن المبارك، تحقيق محمد نبيل طريفي،دار صادر، بيروت،٢٠٠٨م.